مقاصد الإنذار والتبشير

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٨/٦/٢٠م

اليأس عدوٌّ قاتل، وحينما يتمكن من نفوس أبناء الأمة يُلغي آمالهم ويستأصل طموحاتهم، وإذا أرادت الأمة أن تبني جيلاً قادرًا على بناء نهضة فلا بد أن تعلمه كيف يقتل هذا اليأس، بدلاً من أن يقتلها.

وهكذا فإن قارئ كتاب الله تبارك وتعالى، والقارئَ لسيَرِ رسل لله عليهم الصلاة والسلام، يجد أن مضمون الخطاب لديهم كان ينقسم إلى قسمين: **إنذار وتبشير، أو تخويف وترجية، أو ترغيب وترهيب.**

فهل سنبقى في منهجنا التربويّ نوجه إلى قلوبنا وبواطننا هذين التوجيهين أو هذين المضمونين من الخطاب، أم أن علينا أن نستثمر توجيهًا تربويًّا علاجيًّا يتفاوت في الوقت ويختلف حسب الحال؟

وإذا كنّا نعاني من ترهيب القوى المادية، ومن تخويف القوى المادية، ومن إنذار القوى المادية الذي لا يتركنا لمحة ولا نَفَسًا... فهل سنسلط على هذه الأمة تخويفًا إضافيًّا؟

ولكن كيف لنا أن نقرأ خطاب القرآن وتوجيه النبي عليه الصلاة والسلام الذي ينقسم إلى إنذار وتبشير، وكل الرسل أخبر سبحانه أنهم جاؤوا بالتبشير والإنذار، فقد قال سبحانه: { وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ، رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ } [النساء: ١٦٤-١٦٥]؟

وقال وهو يخاطب سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } [الإسراء: ١٠٥].

لكن - وأنا أتحدث عن توظيف الإنذار والبشارة في المنهج التربويّ - لفت نظري قوله تبارك وتعالى وهو يتحدث عن القرآن الكريم فيقول: { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا } [مريم: ٩٧]، وكأني أحسست بأنني أُمسك مفتاح حلٍّ وأنا أقرأ هذه الآية المباركة:

- { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ } أي: يسرنا هذا القرآن ليصل إلى العالمين كلهم.
- { بِلِسَانِكَ } ولسانُك حلوٌ عذب، ولسانُك منطق يخرج من فم باسم عن قلب ناصح عن رحمة عالمية.
- { لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ } فوظّف توجيه البشارة إلى صنف المتقين.
- ووظف توجيه الإنذار إلى صنف آخر فقال: { وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا } واللدّ: جمع الألدّ، وهو مَن طغى وخاصم فكان شديد الخصومة والطغيان.

إذًا: هذه الآية تفتح لنا باب فهمٍ في توظيف الإنذار والبشارة، أو في توظيف التخويف والترجية، أو في توظيف الترهيب والترغيب.

ثم إن القرآن لمن قرأه يفصل ويوضح، فنقرأ في سطور المصحف الشريف معنًى يزيد القضية وضوحًا حين يبين أن الكافر الألدَّ الطاغية المخاصِم لا يعبأ بالإنذار، فيتوجه إليه الإنذار لكنه لا يعبأ به، ولا يهتز له، ولا يتأثر به، قال سبحانه في وصفهم: { وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا } [الكهف: ٥٦] أي سخروا من الإنذار.

وفي موضع آخر يقول سبحانه: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ } [الأحقاف: ٣] فقد أعرضوا وصرفوا وجهة قلوبهم عن ذلك الإنذار الذي يتوجه إليهم من الله.

وقال سبحانه في موضع آخر: { وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ } [القمر: ٣٦] أي انشقُّوا وكذَّبوا و لم يصدِّقوا.

فالمعنى الأول الذي يقدِّمه لنا القرآن الكريم بعد ذلك التوظيف أن هناك من الناس صنفًا ماديًّا قد أظلم باطنه وأقفل قلبه فلم يعد يلتفت إلى الإنذار، وكأن الإنذار الذي وجَّهه الله إلى الناس غير موجود.

وبعد ذلك نقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى قوله: { وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [الأنعام: ٥١] فأفادنا توظيفًا إضافيًّا للإنذار، وهو حينما يتوجه الإنذار إلى أهل الإيمان وقد قصّروا في التقوى والانضباط والانقياد والطاعة...

فتحصّل أن الإنذار: **يتوجه إلى الكافر** فلا يعبًا به حين يكون طاغيًا ومخاصمًا، **ويتوجه إلى مؤمنٍ** آمن بالله واليوم الآخر لكنه قصّر في الأداء السلوكيّ، وقصّر في الطاعة والانضباط بأمر الله سبحانه وتعالى، فقصّر وقَصُر عن رتبة التقوى، فتوجه الإنذار إليه ليرفعه مع الإيمان إلى سوية التقوى، ومنـــزلة الانقياد والانضباط.

واقرؤوا قوله تعالى وهو يزيد المسألة تفصيلاً:

{ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } أي: أولئك الذين أُقفلت قلوبهم عن الحقّ، { إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } [يس: ١٠-١١] وهكذا نقل إلينا صورة يكون فيها المؤمن متنقلاً من سماع الإنذار إلى سماع التبشير.

{ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ } أي من انتمى إلى القرآن، { وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ } صدَّق بوجود الله وعظمته، وها هنا مُقدَّرٌ يُستفاد من الآيات الأخرى، وهو أنه إذا سمع ذلك الإنذار فإنه ينتبه ويقتدي ويتقي، فإذا كان حاله كذلك { فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ } ، فانتقَلَ من أسلوب الإنذار إلى أسلوب التبشير، فقد حصل المراد.

أي فبشِّره بعد أن أنذرته بمغفرةٍ لما سبق، والإسلامُ يجُبُّ ما قبله، والله سبحانه يعفو ويغفر، ويقبل اليسير من العمل ويغفر الكثير من الزلل، إن أتيته تمشي أتاك هرولة، إن تقرَّبْتَ إليه شبرًا تقرَّبَ منك ذراعًا، إنه الذي يفرح بتوبة عبده...

فإذا انتقل العبد إلى حضرة مولاه منيبًا تائبًا مقبلاً، فإنه يكون بهذا قد انتقل من سماع الإنذار إلى سماع التبشير، { فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } .

وقال سبحانه وتعالى: { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا } فالإنذار عامٌّ من أجل أن تحصل الخشية في القلوب، ومن أجل أن يميز الله الخبيث من الطيب، فالإنذار عامٌّ يُغَرْبِلُ الناس، فيمتاز أهل الإيمان بعد الإنذار، وحينما يمتازون يصبحون المرشحين للبشارة: { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [يونس: ٢].

وقال سبحانه: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا، قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ } فهو إنذارٌ عامٌّ لتحصل الخشية في القلوب، ويحصل تعظيم الله تعالى في القلوب، وهو يتوجه إلى كل الناس، { وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا } [الكهف: ١-٢].

فالإنذار عامٌّ تمهيديّ لينقل الإنسان إلى رتبةٍ يستحقُّ فيها التبشير من الله سبحانه حينما يتحقق بالإيمان والعمل الصالح.

والبشارة لأهل الإيمان - كما يفصل القرآن - والتي تلغي اليأس وتستأصله وتقتله في البواطن هي بشارةٌ في الدنيا وبشارةٌ في الآخرة، فقد قال الله سبحانه:

{ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [يونس: ٦٢-٦٣] ولاحظوا تأكيد القرآن على الإيمان والعمل الصالح في البشارة، أو على الإيمان والتقوى، فما تتوجه البشارة إلاَّ لمن جمع الأمرين معًا: الإيمان والتقوى، فالإنذار مع الإيمان نافع لتحصيل التقوى، أما البشارة المطلقة التي ليس فيها تخويف ولا إنذار فإنها تكون لمن اجتمع فيه هذان الأمران: الإيمان والعمل الصالح، أو الإيمان والتقوى.

ثم قال: { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [يونس: ٦٤]

ومَن كانت له البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة كيف يمكن لليأس أن يرد إلى باطنه؟

وهكذا فإننا نفهم من هذه الآية أن من كان من أولياء الله فإنه لا يقع في اليأس، لأنه ينظر دائمًا إلى بشارتين: بشارةٍ في الحياة الدنيا وبشارةٍ في الآخرة، فهو يعيش في واقعه النفسيّ مع البشارتين، ومن كان يعيش في واقعه النفسيّ مع البشارتين كيف يستطيع اليأس أن ينسل إلى باطنه؟

وبشارة الدنيا عبّر عنها بقوله: { نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [الصف: ١٣] أي: بشِّر المؤمنين بذلك، أي بالنصر والفتح القريب.

وكلمة "قريب" بالنسبة لله سبحانه قد لا تعني قريبًا بمفهومك الزمنيّ أنت، إنما قد تعني توارد أجيال، لكنه قريب، فكن على الثبات، وكن على الصراط، وكن مستقيمًا على أمر الله، وعِش البشارتين في باطنك وواقعك النفسي، فعِش في البشارتين ولا تأبه، وإياك ثم إياك ثم إياك أن تعيش اليأس، لأن بشارة الدنيا حاصلة، وإن لم تحصل اليوم ستحصل غدًا، وإن لم تحصل غدًا ستحصل بعد غد... فهي موعود صادق.

وحين قَدِم عَدِي بن حاتم الطائيّ - وكانت قبيلة طي التي ينتمي إليها تمثِّل في واقع الجزيرة العربية ما يُشبِه أمريكا اليوم، وهي متألِّبة على النبي صلى الله عليه وسلم، وهي محاربة للإسلام - وقَدِم عدي، ذلك السيّد الثريّ، والذي كان من أصدقائه قيصرُ، ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إليه..

إنه يعيش أَسْرَ الواقع.. ينظر فيرى الجزيرة العربية متألِّبة على النبي صلى الله عليه وسلم كما يتألَّب اليوم في العالم من يملكون قبضة السلاح والمادة على الإسلام، والإسلامُ غريب.

..ينظر عَدي إلى واقع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابِه فيقع أسير رؤية قاصرة، وانظروا كيف يُخرج النبي صلى الله عليه وسلم عديًّا من أَسْرِ تلك الرؤية القاصرة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم كما يروي الإمام أحمد والحاكم وغيرهما: **(يا عدي بن حاتم أسلم تسلم)**.

يا سبحان الله! من الذي يقول: أسلم تسلم؟!

بمنظور حاتم هو صديق قيصر، وهو مِن طي، والذي يقول له: أسلم تسلم، هو الذي اجتمعت الجزيرة العربية والروم وفارس على حربه، ويقول له: أسلم تسلم؟!

ثم يقول له صلى الله عليه وسلم: **(فلعلك إنما يمنعك عن الإسلام أنك ترى من حولي خصاصة)** أي الذين حولي جياع وفقراء، **(وأنك ترى الناس علينا إلبًا)** أي يجتمعون ويتألَّبون على عداوتنا.

إنه تشخيص للحالة النفسية التي يعيشها حاتم، فبموازين القوى المادِّيَّة لا يوجد أحد من الأقوياء معي، فالأقوياء ماديًّا يجتمعون على عداوتنا.

ثم أَتْبَعَ ذلك - كما يروي الطبراني وابن عساكر - بقوله صلى الله عليه وسلم:

(يَا عَدِيّ بن حَاتِمٍ، لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُفْتَحَ خَزَائِنُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ..

يا عَدِيّ بن حَاتِمٍ، لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْتِيَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحَيرةِ (في العراق) **حَتَّى تَطُوفَ بِهَذِهِ الْكَعْبَةِ بِغَيْرِ خَفِيرٍ** (أي لا يحرسها حارس)..

يا عَدِيُّ بن حَاتِمٍ، لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يحمل الرجل جِرَابُ المَالِ، فَيطُوفَ بِهِ فلا يجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ).

إنه يُكسِّر الأقفاص التي أُسِرَ بها قلبه:

- **المال**: وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يملكون المال.
- **القوة**: فقيصرُ وكسرى تُفتح خزائنُهما وتكون بلادهما تابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
- **الحماية**: فالظعينة لا الرجل تسير من الحيرة إلى الكعبة لا تخاف.

ثم انظروا ماذا أجاب عدي، قال: فأين طي؟ طي التي تفعل الأفاعيل.. كالذي يقول اليوم: إذًا أين أمريكا؟

ويجيبه النبي صلى الله عليه وسلم بعبارة مختصرة فيقول: **(إذًا يكفيكها الله وما سواها)** أي الله يكفيك إيَّاها.

لقد وقف أمام شبحٍ اسمُه طي، وأمام رؤية قاصرة مؤقَّتة يكون فيها مشهدُ الإسلام ضعيفًا ومشهدُ أعدائه قويًّا، فقلب له الصورة، وأخرجه من حالة الانحباس والانحصار من تلك الرؤية القاصرة، فأسلم عدي.

ويقول الله سبحانه وتعالى: { وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا } اجتنبوا عبادةَ غير الله والانقيادَ لغيره، { وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ } [الزمر: ١٧] فوجّه إلى وظيفة التبشير ليكون لها دورٌ تربويّ.

وأكثَرَ القرآنُ من قوله: { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } ، { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } ، { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } ، { وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } ..

إذًا: علينا أن نُدرك من خلال ذلك كله، أن توظيف الإنذار مهمة تربويَّة، وتوظيفَ التبشير مهمة تربويَّة.

فإذا رأيت ضعيفًا يبذل قصارى جهده، ويريد الدعوة، ويريد تبليغ أمر الله، ويُستنفَدُ ما في وسعه... فكُفَّ عنه الإنذار، ووظِّف تبشيرًا مؤنِسًا يدخل إلى قلبه، فهو مُنضبطٌ مستقيمٌ على الطريق، فبشِّره وارفع معنوياته، واجعل همَّته في أعلى السماء، وإياك ثم إياك من التخذيل والتثبيط، فما أكثر ما يفعله الإعلام اليوم من التثبيط!

واليوم يمارس الإعلام دورًا تثبيطيًّا، وأحد الذين يسمعون الإعلام - كما عرفت - وصل إلى حالة الهستيريا، وكاد أن يقتل نفسه وهو يقول: ما الذي أفعله؟

وهكذا يبتعد الإنسان عن البشارة.

وإذا قمنا بإحصاءِ ما الذي يفعله الإعلام اليوم؟

هل يعدكم الإعلام بعِزِّ الإسلام الذي يبلغ ما يبلغ الليل والنهار كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أخبر أصحابه؟

هل يضيء في قلوبنا بصيص أمل، أم أنه يُسلِّط الأضواء على القوة المُرعِبة من أجل أن يزداد الإنسان المسلم ذلاً ويأسًا وإحباطًا، ومن أجل أن يعبد الدبابة؟

سلَّم الله أيدي المجاهدين شرقًا وغربًا، وهم يخرجون أمام الدبابة فيفجِّرونها..

وسلَّم الله يد طفلٍ على أرض غزَّةَ في فلسطين يمسك بالحجارة فيضرب عدوًّا صهيونيًّا مُسلَّحًا مُدججًا يوجِّه إليه الرصاص والمدفع..

إنها الانبعاثة الإسلامية..

إنها حرية الروح..

وحين حصلت حرية الروح صار الجسد تابعًا لتلك الروح العزيزة، وحينما أتبعنا أرواحنا لأجسادنا انحبسنا في ذُلّنا وفي جُبننا وفي خوفنا وفي رُعبنا... بعيدًا عن البِشارة.

وتعرفون قصة الصخرة في الخندق، حين كان الأصحاب يحفرون وتعثرت عليهم صخرة، فاستعانوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يحفرون في الليل والنهار، ويأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل، والأصحاب يعسكرون لحفر الخندق، ويمسك المِعول، ويضرب الصخرة الضربة الأولى والثانية والثالثة، وفي كلِّ مرة كانت تضيء من شدة قساوة تلك الصخرة، حتى يتحول ليل المدينة إلى نهار.

ويعجب الأصحاب، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى)**، ويقول: **(أضاء من الثانية القصور الحمر من أرض الروم)**، ويقول في الثالثة: **(أضاءت قصور صنعاء، ويقول لي جبريل: إن أمتي ظاهرة عليها)**.

فرح المؤمنون حين سمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: هذا موعود صادق، ويقول المنافقون: يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنت تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا؟!

فنـــزل قوله الله سبحانه: { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا } [الأحزاب: ١٢]

اخرجوا من اليأس أيها الأحبة، وعيشوا حالة البِشارة، وعندما تعيشون تلك الحالة فطريقكم يؤدي إلى إحدى الحسنيين، فكونوا أصحاب العِزّ بالله، واصحبوه بتذلُّل بعضكم لبعض، فإذا كنتم أصحاب العزّ بالله وتذلل بعضكم لبعض، فتكون نتيجة طريقكم إحدى الحسنيين.

ثبِّتنا اللهم على دينك، وارزقنا حفظ أمانتك، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.